الامبراطورية ولكن السلطان قليج ارسلان كان في منتهى الذكاء والدهاء عندما اعتذر للامبراطور عن مثل هذه الاعمال، وبهذه التسويات الودية نجح السلطان السلجوقي في كسب ثقة الامبراطورية البيزنطينية (١٢٥).

بدأت العلاقات السلجوقية البيزنطينية في التوتر عندما تنبه الامبراطور في النهاية لازدياد الخطر السلجوقي خاصة بعد التحالف الذي تم بين السلطان قليج ارسلان وبين نور الدين زنكي امير اتابكه الموصل عدو البيزنطينيين والصليبيين على السواء.

كما جدت بعض الاسباب الاخرى عام ١١٧٤ م عجلت في نشوب الحرب بين الجانبين السلجوقي والبيزنطي. ومما لاشك فيه ان فرار اميرين هما شاهنشاه وذو النون من وجه قليج ارسلان الى القسطنطينية وترحيب الامبراطور مانويل بهما قد اثار مخاوف قليج ارسلان وبات يتوقع الخطر بين ليلة واخرى.

وعلى مايبدو ايضاً ان الامبراطور فريدريك باربروسا قد دخل في مفاوضات مع السلطان قليج ارسلان باعتباره احد اعداء الامبراطورية البيزنطينية في الشرق وحثه على قتال الامبراطور مانويل (١٢١). وكان فريدريك يقصد من وراء ذلك ان يتحول الامبراطور مانويل عن المسائل الاوربية الى الاهتمام بأمور آسيا الصغرى. اضافة الى ان الامبراطور مانويل قد فرغ من مشاكله لبعض الوقت بعدما عقد الصلح مع البنادقه (١٢٢)

اما السبب المباشر الذي ادى الى اشعال الحرب بين الطرفين جاء في حين طلب الامبراطور مانويل من السلطان قليج ارسلان ان يعيد الى الامبراطورية جميع المدن والاراضي التي اتفق عليها عام ١١٦٢ م اثناء زيارة السلطان الاخير للقسطنطينية وعندما تجاهل السلطان طلب الامبراطور، بدأ الاخير يفكر جدياً في استخدام القوة ضد السلاجقة. ورغم ان الوقت كان متأخراً بالنسبة للامبراطورية فان الامبراطوز مانويل امر في العمل على زيادة التحصينات الحدودية في آسيا الصغرى وخاصة عند

---

(120) Speros Vryonis, Op. Cit, p. 122

(121) Vasiliev. Op. Cit, pp. 425, 428

(122) Finlay, Op. Cit, p. 186

مدينة ضروليوم Drylaeum وكوما سوبلايون Choma-Soublaion وقد اعتبر السلطان قليج ارسلان هذه التحصينات دليل على سوء نية الامبراطور وانه يعد العدة لمحاربته (١٢٣).

ويبدو ان السلطان قليج ارسلان انذاك لم يكن مستعداً الاستعداد الكافي لمواجهة الموقف، لذلك ارسل الى الامبراطور مانويل طالباً الصلح، لكن الامبراطور رفض هذا العرض (١٢٤).

يتضح ان الامبراطور مانويل كان اكثر استعداداً للحرب من السلطان السلجوقي. فقد حشد قوات كبيرة ضمت عناصر اجنبية لاتينية وصربية وهنغارية (١٢٥).

وما ان استكملت القوات البيزنطينية تحشدها في صيف عام ١١٧٦ م حتى بدأت تستعد لمجابهة السلاجقة. وكان يقود القوات البيزنطينية والقوات المتحالفة معها الامبراطور مانويل ومعه ابن عمه اندرونيقوس فاتازس Andronicus Vatazes (١٢٦).

ولما كانت وجهة القوات البيزنطينية مدينة قونيه مركز السلاجقة (١٢٧) فقد اضطر مانويل الى الوصول الى مدينة سوبلايون حيث اتجه منها الى الجبال الضخمة المعروفة باسم سلطان داغ التي تقع بالقرب من قونية وحاول عبور الممر الواقع في هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيفرتز Tzyvritze الذي يقع في نهاية قلعة ميروكيفالون Myriokephalon ليكون في مواجهة مدينة قونيه مباشرة (١٢٨).

لم يكن تقدم القوات البيزنطينية الى قونيه مفاجأة للسلاجقة، ولعل السلطان قليج ارسلان قد علم بتقدم الامبراطور ومكان تجمع القوات البيزنطينية

---

(123) Finlay,pp.Cit,234-235

(124) Speros Vryonis,Op. Cit,p.124

(125) finlay,Op.Cit,p.235

(126) Speros Vryonis, Op.Cit p.123

(١٢٧) (اصبحت قونيه عاصمة الروم السلاجقة بعد سقوط نيقيه عام ١٠٩٧ م في ايدي الصليبيين).

(128) Vasiliev, Op. Cit,p.428

وكانت القوات السلجوقية على اهبة الاستعداد لمواجهة الموقف بكل شجاعة. والواقع انها كانت متمرسة على قتال البيزنطينين وتجيد فنون القتال في الممرات والجبال، ومع ذلك فقد بعث السلطان قليج ارسلان الى الامبراطور يدعوه الى الصلح والرجوع الى ماتفق عليه عام ١١٦٢ م. الا ان الامبراطور رفض للمرة الثانية دعوة السلام هذه ورد على السلطان بان الاتفاق سيكون في (نيقيه) اي بعد احتلالها (١٢٩).

لجأت القوات السلجوقية قبل الاشتباك الحاسم مع البيزنطينيين الى استدراجهم داخل الممر الجبلي ثم اللجوء الى حرب الكمائن والمناوشات. في الوقت الذي اتخذت بعض القطعات اماكنها على قمم الجبال وهي تقذف بالكلاب والحيوانات الميتة مما ادى الى انتشار بعض الامراض الخطرة كالدزنتريا (الاسهال الحاد) (١٣٠) وعندما انحشرت القوات البيزنطينية داخل الممر كانت القوات السلجوقية تحيط بها من كل جانب. وفي اللحظة المناسبة قام السلاجقة بضرب المقدمة لايقاف محاولة تقدم الجيش البيزنطي انتقلوا لمجابهة الجيش الرئيسي بغرض شطر القوات الى شطرين، وقد نجح السلاجقة في هذه المهمة وانزلوا افدح الخسائر بالقوات البيزنطينية. وسرعان مادبت الفوضى في صفوف البيزنطينيين وتمكن السلاجقة من محاصرة النصف الخلفي للجيش البيزنطي وانزلت فيه القتل (١٣١).

وهكذا نجح السلاجقة في اصطياد القوات البيزنطينية بعدما حشرت تماماً داخل الممر وبهذه الصورة اصبح الجيش البيزنطي تحت رحمة القوات السلجوقية التي ظلت تمطره وابلاً من النبال وحاولت القوات البيزنطينية الخروج من هذا المأزق باي طريقة وفشلت جميع المحاولات التي قامت بها. بعدما سد عليها السلاجقة كافة السبل. وقد قتل في هذه المعركة ابن عم الامبراطور اندرونيقوس فاتازس وحمل السلاجقة رأسه على رمح وطافوا به امام ناظري القوات البيزنطينية. فتملك البيزنطينيون الذعر واليأس وحاولوا الهروب والنجاة بانفسهم مخلفين وراءهم عرباتهم واسلحتهم الثقيلة، وكان اول من ضرب المثل على الهروب هو الامبراطور مانويل الذي

---

(129) Finlay, Op. Cit,p.236

(130) Speros Vryonis, Op. Cit,p.124

(131) Finlay, Op. Cit, p.236,246

نجا من القتل باعجوبة عندما لجأ الى احد الوديان المتطرفة البعيدة عن اعين السلاجقة .

وهكذا انتهت هذه المعركة التي عرفت باسم معركة مَيروكيفالون بانتصار القوات السلجوقية انتصاراً عظيماً ودحر القوات البيزنطينية . وقد ترتب على هذه المعركة نتائج هامة تتلخص في انها وضعت حدا لمحاولات الامبراطور مانويل في طرد السلاجقة نهائياً من آسيا الصغرى او في وقف أطماع السلاجقة في السيطرة على آسيا الصغرى بأكملها، بل على العكس فقد تمكن السلاجقة في كسب ارضا جديدة في عمق الاراضي البيزنطينية (١٣٢) . وعلى كل حال فان السلاجقة اصبحوا عند نهاية حكم مانويل اقوى بمراحل مما كانوا عند توليته العرش . وقد اصبحت دولة سلاجقة الروم دولة قوية .

٢ــ الصليبيين :

نحن في هذه الدراسة لانريد الخوض في تفاصيل الحروب الصليبية الا في صلتها بالامبراطورية البيزنطينية وفي نطاق تأثيرها على مصيرها . وإذا كان لابد لنا ان نذكر بايجاز اسباب الحروب الصليبية نقول ان السبب الاول كان ظاهراً ابان تلك الفترة هو السبب الديني . وكان الهدف بطريقة مباشرة او غير مباشرة هو السيطرة على الاماكن المقدسة في ربوع الشام . ولكن الاسباب الاخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية لايجب اغفالها ايضاً .

فالدولة البيزنطينية في اواخر القرن الخامس الهجري / اواخر القرن الحادي عشر الميلادي تعرضت لضغط شديد من قبل السلاجقة على اقاليمها الاسيوية كما تعرضت في الوقت ذاته لخطر النورمان وضغطهم على اقاليمها الاوربية ، الامر الذي ادى الى ضعفها وبالتالي تراجعها امام هذين الضغطين ، فتراجعت امام السلاجقة بعد هزيمتها في معركة مانزكرت عام ١٠٧١ م معهم . كما تراجعت امام النورمان الذين انتزعوا منها اخر معاقلها في ايطاليا عام ١٠٨١ م . كما استغل هؤلاء النورمان هزائم البيزنطينيين امام السلاجقة فاشتبكوا مع البيزنطينيين في امواقع كثيرة واخيراً

---

(132) oman, Op. Cit,p272

زحف روبرت جيسكارد النورماني على القسطنطينية نفسها لكنه اضطر الى العودة الى ايطاليا، وترك امر قواته لابنه بوهيمند الذي صار فيما بعد بطلاً من ابطال الحملة الصليبية الاولى، وكان النورمان قد أوقعوا في الامبراطورية خسائر كثيرة حتى ان القسنطينية نفسها كادت تسقط بايديهم قبل الغزو الصليبي، الامر الذي فتح لهم طريق الشرق ويسر زحف الصليبيين الى هذه الديار (١٣٣). هذا بالاضافة الى الاسباب الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية الاخرى.

عندما تعرضت الامبراطورية البيزنطينية في عهد الكسيوس كومنين الى هجمات النورمان المتزايدة من الغرب، والبشناق من (١٣٤) الشمال، والسلاجقة من الجنوب والشرق وعجزت عن صدهم والتغلب عليهم، اضطرت الى طلب النجدة عام ١٠٨٧ م من روبرت امير الفلاندرز ليرسل اليها العساكر، فاجاب طلبها كما استنجدت بالبابا اوربان الثاني .Urban.11 اكثر من مرة لمساعدتها في دفع هذه الاخطار (١٣٥).

وقد نجح البابا اوربان الثاني في توجيه اوربا الى الغزو الصليبي عندما انتقل الى كنيسة كليرمونت Clermont في الجنوب الشرقي من فرنسا وعقد اجتماعاً دينياً في شهر اذار ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م بعد تلقيه رسائل جديدة من الامبراطور البيزنطي حيث القى خطابه الشهير الذي دعا فيه المسيحيين الى مساعدة الامبراطور البيزنطي، واعداد الجيوش لغزو يقهر المسلمين ابتغاء الحصول على التوبه الكاملة. فبادر الالوف من المسيحيين الى اتخاذ الصليب شعاراً لهم، وكان اوفر الاسقف ادهيمار Adhemar الذي جعله البابا اوربان الثاني نائباً عنه، ونصبه قائداً روحياً للحملة (١٣٦).

---

(١٣٣) قارن ذلك بما اورده عاشور، سعيد — الحركة الصليبية — ج١ — ص ١٢٣ — ص ١٢٥،
Campbel, The Crusades (London - 1935), p. 46, 52, 73-75

(١٣٤) وهم قسم من الاتراك الاسيويين

(١٣٥) آرنست باركر — الحروب الصليبية (ترجمة السيد الباز العريني)، — ص ٢٠،
Campbell,Op. Cit pp. 24, 27

(136) Campbell, Op. Cit p. 35, 36, 37, 40, 75
آرنست باركر — المصدر نفسه — ص ٢٠ — ص ٢٢.

وفي الواقع ان الكسيوس كومنين عندما طلب مساعدة الغرب لم يكن يتصور ان تكون بهذه الصورة الضخمة. لقد طلب امداده، بقوات عسكرية مرتزقة لا بطوفان من البشر الغوغاء يتقاتل على ارضه. وعندما ظهرت الحملة الصليبية الاولى امام اسوار القسطنطينية عام ١٠٩٦ م انزعج الامبراطور الكسيوس جداً لوصول هذه الحملة التي لم يكن يستطيع ان يقدر اهميتها والتي كان بين قادتها عدوه التورماني القديم بوهيمند.

لم يكن لدى الكسيوس سوى شاغل واحد وهو نقلهم الى آسيا الصغرى ماداموا لم يجندوا الا لمقاتلة المسلمين. فقد حاول الامبراطور ان يتوصل الى تفاهم معهم. وحيث انه كان اضعف من ان يتخلص منهم فقد حاول ان ينتفع بهم وبعد استعمال الشدة والدبلوماسية مع الصليبيين جعل امراءهم يقسمون له يمين الولاء، واستطاع ان يستعملهم في العمل على استرجاع آسيا الصغرى. فقد وعد الصليبيين الامبراطور بان يرجعوا له كل البلاد التي سبق ان امتلكتها الامبراطورية بعد استراجاعهم لها من السلاجقة الاتراك. وكان بمقتضى هذه الاتفاقية ان نيقيه سلمت للبيزنطينيين بعد الاستيلاء عليها عام ١٠٩٧ م (١٣٧).

وواصل الصليبيون مسيرتهم نحو الشرق والى الجنوب الشرقي وليس لنا هنا ان نتتبع كيف ان رؤساء الحملة توقفوا في الطريق لتأسيس امارة الرها ثم امارة انطاكية ثم امارة بيت المقدس التي وصل اليها مايقدر بحوالي الف او خمسة وعشرين الف رجل هاجموها في الخامس عشر من تموز عام ١٠٩٩ وان العملية كانت نهباً وسلباً وتخريباً ومجزرة بشعة اما امارة طرابلس فلم تؤسس الا في مرحلة لاحقة (١٣٨).

وعلى الرغم من حصول الامبراطورية على مزايا هامة من الحملة الاولى، ومن بين هذه الامتيازات اضعاف السلاجقة الروم عسكرياً، واعادة سلطانها على جزء كبير من آسيا الصغرى. الا ان العداء بدأ يلوح في الافق بين البيزنطينيين والصليبيين خاصة بعد استيلاء الصليبيين على انطاكية عام ١٠٩٨ واعطائها الى بوهيمند التورماني بالرغم من وعودهم السابقة للامبراطور بتسليم كل مايستردونه من اراضي

---

(137) Campbell, Op. Cit, pp. 80-91, 94-103, Runciman, Op. Cit, Vol. 2. p. 13

(138) Regine Pernoud, The crusaders, (London-1963), p. 57-62

الدولة وأملاكها المفقودة في آسيا ماعدا الاراضي المقدسة نفسها، وذلك كله مقابل تعهد الامبراطور بامدادهم بالمؤن والسفن اللازمة لنقلهم الى الشاطيء الاسيوي. وعندما رفضوا بعد ذلك انتظار الامبراطور ليشترك معهم في تقدمهم الى بيت المقدس اشتد الخلاف بين الطرفين. وقد بلغ الخلاف اشده عندما فشلت الحملة الصليبية عام ١١٠١ م الذي ارجع الصليبيون اسبابه لتصرفات البيزنطينيين. وعليه فقد انتشرت الشائعات المعادية للبيزنطينيين في اوربا والامارات الصليبية في الشرق واتسعت الهوه بين الاوربيين والبيزنطينيين لذلك قام بوهيمند بشن هجوم ضد الامبراطورية عام ١١٠٧ م الا ان الهجوم فشل نظراً لشجاعة الكسيوس كومنين التي أبداها في صد الهجوم (١٣٩). وهكذا جاءت الحروب الصليبية لتزيد من شعور النفور والعداء بين الغرب اللاتيني والشرق اليوناني مما كان له اكبر الاثر في مصير الحروب الصليبية من جهة وفي مستقبل الامبراطورية البيزنطينية من جهة اخرى.

وعلى كل حال اذا القينا نظرة سريعة على حكم الكسيوس، وجب علينا ان نتفق على انه كان حاكماً عظيماً، تمكن في ظروف قاسية من صد الاخطار التي حاقت الامبراطورية وان يعيد لها بالحروب والسياسة والخديعة اراضي كانت قد فقدتها. وكان عليه ان يناضل ضد النورمان وضد البشناق وضد سلاجقة الروم واخيراً ضد الصليبيين. وبفضل حنكته ومقدرته وخططه تمكن من الانتصار عليهم وان الامبراطورية اثناء حكم الكسيوس تخلصت وانطلقت من هذا الاختناق الذي اطبق عليها وتمكنت من استعادة جانب من عظمتها القديمة.

وخلال قيام الصليبيين بحملتهم الثانية لاسترداد الرها التي سقطت بايدي المسلمين عام ١٤٤ م (١٤٠)، اتضح ذلك الشعور العدائي الذي تكنه اوربا ضد الامبراطورية البيزنطينية. فحين وصل الصليبيون الى الشرق بقيادة كونراد الثالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا تقدمت اولاً باتجاه القسطنطينية في محاولة منها

---

(139) Runciman, Op Cit, Vol. 2.p.53, Finlay. Op. Cit, p. 143-150

(١٤٠) تمكن زنكي اتابك الموصل (١١١٧ ــ ١١٤٦ م) من استرجاع الرها من الصليبيين في عام ١١٤٤ م. ولاشك في ان سقوط الرها في ايدي المسلمين يعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية بوصفها اول الامارات التي اسسها الصليبيون في الشرق زيادة على كونها القلعة التي تعترض الطريق بين الموصل والشام.

لاسقاطها. الا ان بسالة الامبراطور مانويل واجراءاته في تقوية تحصينات العاصمة ادى بهم الى فك الحصار عن العاصمة الامبراطورية ومغادرتها باتجاه الرها. ارتاح الامبراطور مانويل لرحيل الحملة، وتبعد عن الحيقة اذا قلنا ان فشل الحملة الصليبية الثانية قد زاد من الصعوبات التي يواجهها مانويل في الشرق، لان هذا الفشل ادى الى تقوية روح النصر لدى المسلمين فاشتدت ضرباتهم للامارات الصليبية مستفيدين ايضاً من الخلافات القائمة بين الامبراطورية البيزنطينية وبين قادة الحملة الصليبية.

ومن ناحية اخرى فان كونراد الثالث رغم تجديد التحالف مع الامبراطورية لم يكن بوسعه ان يمد العون للامبراطورية بعد الهزيمة القاسية التي لحقت به في آسيا الصغرى وفقدانه خيرة رجاله امام سلاجقة الروم. واخيراً وبصفة عامة فان مكانة الصليبيين قد تضاءلت الى حد كبير في الشرق وتشجع المسلمون على انزال مزيد من الضربات الى الامارات الصليبية واحدة بعد الاخرى.

واثناء تحرك الصليبيين باتجاه الرها هوجموا من قبل القوات السلجوقية التي تمكنت من القضاء على الجزء الاكبر من جيوشهم في مذبحة رهيبة لم يسلم منها الملك كونراد نفسه وجرح في رأسه. وفي هذه الظروف وعندما انتهت تلك الحملة الصليبية الثانية بكارثة نسب الاوربيين والصليبيين ذلك لخيانة البيزنطينيين وتحالفهم مع السلاجقة، ولقد طلبت شعوب غرب اوربا الانتقام لفشل هذه الحملة وفكروا في ارسال حملة صليبية ضد بيزنطة (١٤١). كان لفشل الحملة الصليبية الثانية اثر كبير في تضاؤل مكانة الامارات الصليبية في الشرق، وتشجيع المسلمين على انزال المزيد من

---

(١٤١) دعيت هذه الحملة الصليبية بالثالثه. وقد اشترك فيها بعض زعماء اوربا منهم فردريك بربوسا امبراطور المانيا وفيلب الثاني ملك فرنسا وريتشارد الاول ملك انكلترا. الا ان الحملة لم تحقق النجاح الكامل، فقد غرق الامبراطور بربروسا في احد انهار قليقية عام ١١٩٠ م. اما ريتشارد وفيلب فقد دب بينهما الخلاف قبل ان يبحرا الى الاراضي المقدسة. على انه يلاحظ ان ريتشارد وفيلب لم يفعلا اكثر من الاستيلاء على عكا عام ١١٩١ م ثم يافا وقيسارية، وبعد ذلك عاد فيلب ملك فرنسا الى بلاده. في حين قام ريتشارد في الاراضي المقدسة ببعض الاعمال التي خلدت اسمه ضمن زعماء الحروب الصليبية وان كان قد فشل في الاستيلاء على بيت المقدس. واخيراً انتهى الامر بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين الايوبي وريتشارد عام ١١٩٢ م راجع عاشور ـــ المصدر السابق ـــ ج١ ـــ ص ٤٥٤،

Runciman, Op. Cit, p. 225, 244, 247-263

الضربات الموجعة ضدها. ومن جهة اخرى فان الامبراطورية البيزنطينية بدأت تضع يدها على تلك الممالك وتفرض سيادة الامبراطورية عليها (١٤٢).

وقد استغل الامبراطور مانويل الاول عام ١١٥٨ م الثورة التي حدثت في اقليم قيلقية الارميني بمساندة وتأييد امير انطاكية الصليبي رينودي شاتيون (١٤٣). فقام في ذلك العام بقيادة جيوشه ودخل قيليقية وحضر رؤساء الارمن وابدوا خضوعهم، كما جاء رينو الصليبي وسجد امامه حافي القدمين وسلمه سيفه على مشهد من الحاضرين وبكى طالباً الرحمة، وفي شهر ايلول عام ١١٥٩ م دخل مانويل مدينة انطاكية في موكب رسمي مهيب، وفي موكبه سار الامراء الصليبيون على اقدامهم خلف فرسه غير مسلحين. وبموجب هذا النصر اصبح مانويل سيداً على الامارات الصليبية في الشرق واصبح الامراء الصليبيون اتباعاً له (١٤٤).

وبعد بضع سنوات اضطر عموري الاول ملك بيت المقدس (١١٦٢ — ١١٧٣ م) الى الخضوع للنفوذ البيزنطي بعد ان قدم الملك عموري ولاءه الشخصي للامبراطور مانويل. لقد ارتبط خضوع الممالك الصليبية بالسيادة البيزنطينية ارتباطاً وثيقاً بعد ان تكلل بزواج الامبراطور نفسه من ماري اميرة انطاكية. كما الزم الامبراطور نفسه بالدفاع عنهم والاشتراك معهم في حملاتهم الصليبية ضد مصر (١٤٥) وهكذا بدت الامبراطورية البيزنطينية في اوج عظمتها التي لم تكن لها من قبل على هذا النحو.

٣ــ النورمان :

اذا كانت الانتصارات التي احرزها الامبراطور الكسيوس الاول (١٠٨١ — ١١١٨ م) ضد السلاجقة واستحق عليها ان يعتبر ضمن عظماء الاباطرة العسكريين الذين ارسوا واكدوا قوة الامبراطورية، فانه منذ بداية حكمه كان عليه ان يناضل ضد النورمان.

---

(142) Compbell, Op, Cit. p. 229

(١٤٣) ورينو هذا يعرف بالمصادر العربية بأسم ارناط.

(144) Runciman, Op. Cit, Clo. 2. pp. 345, 353-354, Comphbell. pp. Cit, p.236

(145) Tunciman, Op. Cit, p. 359, Campbell. Op. Cit, p. 235, 237, Vasiliev,Op. Cit.p. 427

لم يكن هناك حد لمطامع روبرت جيسكارد النورماني دوق ابوليا الذي اعترف به البابا (١٤٦) اذ تطلع بعد ان دان له جنوب ايطاليا الى تحقيق ماكان يصبو اليه من اعتلاء عرش الامبراطورية البيزنطينية. لذلك قام على رأس اسطول قوى وعبر بحر الادرياتي وانطلق نحو مدينة ديراكيوم Dyrachium الواقعة على ساحل دالماشيا، ومن هناك اعتقد ان الطريق مفتوح أمامه عبر سالونيك الى القسطنطينية، وكان هذا الطريق هو الباب الغربي للامبراطورية واحدى نقاط الضعف فيها، وكان الزعيم النورماني قد خطط لهذه الحملة كرجل حرب ورجل سياسة.

واما تهديد روبرت الذي لم يكن بوسع الكسيوس ان يرده خاصة وان البحرية البيزنطينية لم تكن كافية لصد مثل هذا الخطر، لجأ الكسيوس الى البندقية وحالفهم وعرض الامبراطور على البنادقة بعض الامتيازات التجارية، ووافقت البندقية بدافع الخوف من وجود النورمان على مقربة منها ومنافسين مباشرين لها، وارسلت قواتها البحرية الى ديراكيوم وهزمت النورمان واضطر الاسطول النورماني المهزوم الي رفع الحصار عن المدينة.

ولم يكن هذا سوى انتصار عابر مؤقت، فقد نجحت القوات النورمانية في تشتيت الجيوش البيزنطينية على البر، واخيراً سقطت مدينة ديراكيوم في ايديهم. ولكن ثمة خطر منع روبرت جسكارد من استثمار نجاحه وانتصاره، فقد انتهزت مقاطعات جنوب ايطاليا فرصة غيابه وثارت وكان على روبرت ان يعجل بالعودة تاركاً ابنه بوهمند Bohemund على رأس قواته ولما كان بوهمند صغير السن قليل التجربة فقد اصيب بالهزيمة.

وجدد روبرت الحملة بعد فوات الاوان وذهبت محاولته ادراج الرياح فقد استطاع الكسيوس ان يعيد تنظيم قواته لينازل النورمان كما ان سوء الحظ كان حليف روبرت عندما تفشى الوباء في قواته، بل ان روبرت نفسه اصيب به عام ١٠٨٥ م وظلت اطماع روبرت سراباً. ولكن الدولة النورمانية في ايطاليا قد تحققت وادى هذا الى انشاء المملكة النورمانية في صقلية بعد خمسين عاماً. وكان ذلك ابقى واقوى

---

(١٤٦) استولى جيسكارد عام ١٠٦٠ م على تارنتو وبرندیزي وبري في ايطاليا وقد كانت من ممتلكات الدولة البيزنطينية. وفي عام ١٠٦١ م استولى على مدينة مسيني وكل الجزء الساحلي من صقلية. انظر — الدوري — المصدر السابق ص ٨٦٥.

ماخلفه روبرت لخلفائه من بعده، فان صراعه مع الامبراطورية البيزنطينية قد فتح الطريق لمطامع خلفائه ووضع اساساً لها. وظهرت القسطنطينية التي كانت سيدة المدن بانها ليست الحصن المنيع الذي لايمكن اقتحامه ولم تعد تحميها مكانتها الدينية والعناية الالهية.

وتدعم سلطان الغرب على القسطنطينية بالثمن الذي دفعته الامبراطورية عرفاناً بمساعدة الاسطول البندقي، فعلى اتساع رقعة الامبراطورية حصل تجار البندقية على الحق في ممارسة التجارة بحرية مع اعفاءات كمركية كبيرة. كما اصبح للبنادقة في ميناء القسطنطينية ثلاثة احواض للشحن والتفريغ وخصص حي كامل في المدينة لاعمالهم التجارية (١٤٧).

٤ــ البشناق والغز:

تعرضت املاك الامبراطورية في البلقان لغارات عدو لايقل في ضراوته وخطورته عن السلاجقة الذين نفذوا الى آسيا الصغرى، وهذا العدو تمثله قبائل تركية ايضاً تتمثل في البشناق والواقع ان غارات البشناق على الاملاك البيزنطينية في شبه جزيرة البلقان لم تنقطع منذ ان تولى قسطنطين الثامن الحكم عام ١٠٢٥ م حتى نهاية القرن الحادي عشر. وذلك بعد ان تم انضمام بلغاريا الى املاك الامبراطورية. ولم يرتدوا عن املاك الامبراطورية في بلغاريا زمن قسطنطين الثامن الا بعد ان انزلوا بها اضراراً جسيمة، وقتلوا كثيراً من السكان منهم جماعة من كبار الموظفين، فضلاً عن عدد كبير من الاسرى الذين تم افتداؤهم زمن رومانوس الثالث. وعاد البشناق مرة اخرى عام ١٠٣٢ م زمن ميخائيل الرابع الى الاغارة على بلغاريا، ومنذئذ توالت غاراتهم التي نجم عنها الخراب والدمار في جهات كثيرة من شبه جزيرة البلقان ووقوع كثير من الاسرى في ايديهم.

على ان زمن الامبراطور قسطنطين التاسع ١٠٤٢ ــ ١٠٥٤ م) شهد اعظم غارة للبشناق على املاك الامبراطورية، نظراً لقيام الامبراطورية بالسماح لاحد

---

(١٤٧) راجع كل من العيني ــ المصدر السابق ــ ص ٨٦٥،

Vasiliev, op. cit, Vol. 1, p. 359, Cambridge Med, Hist, xol.iv, p. 208

زعماء البشناق ويدعى كيجين Kegen باللجوء الى البلاط البيزنطي وحمايته من خصومه. لذلك هدد زعيم البشناق انذاك تيراخ Tirakh بشن حرب لاهوادة فيها، اذا لم يستجب الامبراطور لمطالبه ومنها تسليم كيجين والكف عن مساندته. غضب الامبراطور لما بدر من تيراخ من وقاحة. وكانت اول ردود الفعل هي ارسال اسطول بحري قوامه مئة سفينة لضرب البشناق في اماكن تواجدهم عند نهر الدانوب. دارت هناك معارك حامية بين الجانبين كانت نتائجها انتصار القوات البيزنطينية واستسلام قوات البشناق. الا ان هذا الانتصار على مايبدو لم يكن الا نصراً مؤقتاً. لان البشناق عاودوا الهجوم مرة اخرى عام ١٠٥٠ م وتمكنوا من هزيمة القوات البيزنطينية المرابطة في الاجزاء الغربية من الامبراطورية فاضحت شبه جزيرة البلقان من الدانوب حتى ادرنه تحت سيطرة البشناق.

واستمر البشناق يواصلون غارتهم على اراضي الامبراطورية في عهد كل من الامبراطور اسحق كومنين (١٠٥٧ ــ ١٠٥٩ م) وقسطنطين العاشر (١٠٥٩ ــ ١٠٦٧ م) الا انهم انهزموا امام قوات الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس (١٠٦٧ ــ ١٠٧١ م) الذي تولى بعدئذ عرش الامبراطورية.

على ان هجمات الغز وغاراتهم كانت اشد عمقاً وتدميراً من غارات البشناق. اجتاز الغز الدانوب عام ١٠٦٥ م فدحروا الحاميات البيزنطينية التي واجهتهم هناك. ثم تعرضت الامبراطورية مرة اخرى عام ١٠٧٣ م زمن الامبراطور ميخائيل السابع لغارة شديدة من قبل البشناق والغز حيث عاثوا فساداً في جهات ادرنة وما حولها خاصة اثناء نشوب الحرب بين المتنافسين على العرش. وانعقد الصلح بين الامبراطور نقفور الثالث بوتانياتس (١٠٧٨ ــ ١٠٨١ م) وبين البشناق والغز، غير ان خطر البشناق وتهديدهم استمر قائماً، وظل يعتبر من اهم المشاكل التي كان لزاماً على الامبراطور المقبل الكسيوس كومنين ان يواجهها (١٤٨).

وهكذا ترتب على سياسة بيزنطة الخارجية في هذه المرحلة، ان ارتدت اطرافها الى الوراء اذ فقدت بيزنطة، جنوب ايطاليا والشطر الاكبر من آسيا

---

(١٤٨) العيني ــ المصدر السابق ص ٨٨٠،

Vasiliev, op. Cit, vol. 1, p. 358

الصغرى، وفقدت ايضاً مااشتهرت به في القرن العاشر الميلادي من قدرتها على معالجة الشعوب بما يؤدي الى تماسكها وقوتها. اذ ان رعايا بيزنطة من الارمن والبلغار اخذوا ينفصلون عنها ويناصبونها العداوة والكراهية.